تفسير ابن كثير

يقول تعالى مخبرا عن المنافقين عليهم لعائن الله أنهم { وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم } أي صدوا وأعرضوا عما قيل لهم استكبارا عن ذلك واحتقارا لما قيل لهم ولهذا قال تعالى : { ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون } ثم جازاهم على ذلك فقال تعالى : { سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين } كما قال في سورة براءة وقد تقدم الكلام على ذلك وإيراد الأحاديث المروية هنالك .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر العدني قال : قال سفيان { لووا رؤوسهم } قال ابن أبي عمر : وحول سفيان وجهه على يمينه ونظر شزرا ثم قال : هو هذا وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في عبد الله بن أبي بن سلول كما سنورده قريبا إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان وقد قال محمد بن إسحاق في السيرة : ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلّم المدينة يعني مرجعه من أحد وكان عبد الله بن أبي بن سلول كما حدثني ابن شهاب الزهري له مقام يقومه كل جمعة لا ينكر شرفا له من نفسه ومن قومه وكان فيهم شريفا إذا جلس النبي صلى الله عليه وسلّم يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام فقال : أيها الناس هذا رسول الله صلى الله عليه وسلّم بين أظهركم أكرمكم الله به وأعزكم به فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا ثم يجلس حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع يعني مرجعه بثلث الجيش ورجع الناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا : اجلس أي عدو الله لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلت بجرا أأن قمت أشدد أمره فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا : ويلك مالك ؟ قال : قمت أشدد أمره فوثب علي رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني لكأنما قلت بجرا أأن قمت أشدد أمره قالوا : ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال : والله ما أبتغي أن يستغفر لي وقال قتادة والسدي : أنزلت هذه الاية في عبد الله بن أبي وذلك أن غلاما من قرابته انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم فحدثه بحديث عنه وأمر شديد فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلّم فإذا هو يحلف بالله ويتبرأ من ذلك وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعزلوه وأنزل الله فيه ما تسمعون وقيل لعدو الله : لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلّم فجعل يلوي رأسه أي لست فاعلا وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا أبو الربيع الزهراني حدثنا حماد بن زيد حدثنا أيوب عن سعيد بن جبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم كان إذا نزل منزلا لم يرتحل حتى يصلي فيه فلما كانت غزوة تبوك بلغه

أن عبد ا بن أبي بن سلول قال : ليخرجن الأعز منها الأذل فارتحل قبل أن ينزل آخر النهار وقيل لعبد ا بن أبي : ائت النبي صلى ا عليه وسلّم حتى يستغفر لك فأنزل ا تعالى : { إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول ا وا يعلم إنك لرسوله وا يشهد إن المنافقين لكاذبون * اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل ا إنهم ساء ما كانوا يعملون * ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون * وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم ا أنى يؤفكون * وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول ا لووا رؤوسهم } وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن جبير وقوله : إن ذلك كان في غزوة تبوك فيه نظر بل ليس بجيد فإن عبد ا بن أبي بن سلول لم يكن ممن خرج في غزوة تبوك بل رجع بطائفة من الجيش وإنما المشهور عند أصحاب المغازي والسير أن ذلك في غزوة المريسيع وهي غزوة بني المصطلق .

وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق : حدثني محمد بن يحيى بن حبان وعبد ا بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة في قصة بني المصطلق فبينا رسول ا صلى ا عليه وسلّم مقيم هناك اقتتل على الماء جهجاه بن سعيد الغفاري وكان أجيرا لعمر بن الخطاب وسنان بن وبر قال ابن إسحاق : فحدثني محمد بن يحيى بن حبان قال : ازدحما على الماء فاقتتلا فقال سنان : يا معشر الأنصار وقال الجهجاه : يا معشر المهاجرين وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد ا بن أبي فلما سمعها قال : قد ثاورونا في بلادنا وا ما مثلنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك وا لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ثم أقبل على من عنده من قومه وقال : ما صنعتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم أما وا لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها فسمعها زيد بن أرقم Bه فذهب بها إلى رسول ا صلى ا عليه وسلّم : وهو غليم عند عمر بن الخطاب Bه فأخبره الخبر فقال عمر إذا فكيف] م ّوسل عليه ا صلى ا رسول قال عنقه فليضرب بشر بن عباد مر ا رسول يا : Bه تحدث الناس يا عمر أن محمدا يقتل أصحابه لا ولكن ناد يا عمر الرحيل] فلما بلغ عبد ا بن أبي أن ذلك قد بلغ رسول ا صلى ا عليه وسلّم أتاه فاعتذر إليه وحلف با ما قال ما قال عليه زيد بن أرقم وكان عند قومه بمكان فقالوا : يا رسول ا عسى أن يكون هذا الغلام أوهم ولم يثبت ما قال الرجل .

وراح رسول ا صلى ا عليه وسلّم مهجرا في ساعة كان لا يروح فيها فلقيه أسيد بن الحضير فقال فيها تروح كنت ما منكرة ساعة في رحت لقد وا : قال ثم النبوة بتحية عليه فسلم Bه رسول ا A : [أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبي ؟ زعم أنه إذا قدم المدينة سيخرج الأعز منها الأذل] قال : فأنت يا رسول ا العزيز وهو الذليل ثم قال : ارفق به يا رسول ا فوا لقد جاء ا بك وإنا لننظم له الخرز لنتوجه فإنه ليرى أن قد سلبته ملكا فسار رسول

ا A بالناس حتى أمسوا وليلته حتى أصبحوا وصدر يومه حتى اشتد الضحى ثم نزل بالناس ليشغلهم عما كان من الحديث فلم يأمن الناس أن وجدوا مس الأرض فناموا ونزلت سورة المنافقين وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو عبد ا الحافظ أخبرنا أبو بكر بن إسحاق أخبرنا بشر بن موسى حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عمر بن دينار سمعت جابر بن عبد ا يقول : كنا مع رسول ا A في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار : فقال الأنصاري : ياللأنصار ! وقال المهاجرين يا للمهاجرين فقال رسول ا A : [ما بال دعوى الجاهلية ؟ دعوها فإنها منتنة] .

وقال عبد ا بن أبي بن سلول : وقد فعلوها وا لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل قال جابر : وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول ا A ثم كثر المهاجرون بعد ذلك فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال النبي A : [دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه] ورواه الإمام أحمد عن حسين بن محمد المروزي عن سفيان بن عيينة ورواه البخاري عن الحميدي ومسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة وغيره عن سفيان به نحوه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن الحكم عن محمد بن كعب القرظي عن زيد بن أرقم قال : كنت مع رسول ا A في غزوة تبوك فقال عبد ا بن أبي : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل قال : فأتيت النبي A فأخبرته قال : فحلف عبد ا بن أبي أنه لم يكن شيء من ذلك قال : فلامني قومي وقالوا : ما أردت إلى هذا ؟ قال : فانطلقت فنمت كئيبا حزينا قال : فأرسل إلي نبي ا A فقال : [إن ا قد أنزل عذرك وصدقك] قال : فنزلت هذه الاية { هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول ا حتى ينفضوا و خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون * يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل } ورواه البخاري عند هذه الاية عن آدم بن أبي إياس عن شعبة ثم قال : وقال ابن أبي زائدة عن الأعمش عن عمرو عن ابن أبي ليلى عن زيد عن النبي A ورواه الترمذي والنسائي عندها أيضا من حديث شعبة به .

(طريق أخرى عن زيد) قال الإمام أحمد C : حدثنا يحيى بن آدم ويحيى بن أبي بكير قالا : حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق قال : سمعت زيد بن أرقم وقال ابن أبي بكير عن زيد بن أرقم قال : خرجت مع عمي في غزاة فسمعت عبد ا بن أبي بن سلول يقول لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول ا A ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فذكرت ذلك لعمي فذكره عمي لرسول ا A فأرسل إلي رسول ا A فحدثته فأرسل إلى عبد ا بن أبي بن سلول وأصحابه فحلفوا با ما قالوا فكذبني رسول ا A وصدقه فأصابني هم لم يصبني مثله قط وجلست في البيت فقال عمي : ما أردت إلا أن كذبك رسول ا A ومقتك ! قال حتى أنزل ا { إذا جاءك

المنافقون } قال : فبعث إلي رسول ا A فقرأها رسول ا A علي ثم قال : [إن ا قد صدقك] ثم قال أحمد أيضا : حدثنا حسن بن موسى حدثنا زهير حدثنا أبو إسحاق أنه سمع زيد بن أرقم يقول : خرجنا مع رسول ا A في سفر فأصاب الناس شدة فقال عبد ا بن أبي لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول ا A حتى ينفضوا من حوله وقال لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فأتيت النبي A فأخبرته بذلك فأرسل إلى عبد ا بن أبي فسأله فاجتهد يمينه ما فعل فقالوا : كذب زيد يا رسول ا فوقع في نفسي مما قالوا فأنزل ا تصديقي { إذا جاءك المنافقون } قال ودعاهم رسول ا A ليستغفر لهم فلووا رؤوسهم .

وقوله تعالى : { كأنهم خشب مسندة } قال كانوا رجالا أجمل شيء وقد رواه البخاري ومسلم والنسائي من حديث زهير ورواه البخاري أيضا والترمذي من حديث إسرائيل كلاهما عن أبي إسحاق عمرو بن عبد ا السبيعي الهمداني الكوفي عن زيد به .

(طريق أخرى عن زيد) قال أبو عيسى الترمذي : حدثنا عبد بن حميد حدثنا عبيد ا بن موسى عن إسرائيل عن السدي عن أبي سعيد الأزدي قال : حدثنا زيد بن أرقم قال : غزونا مع رسول ا A وكان معنا أناس من الأعراب فكنا نبتدر الماء وكان الأعراب يسبقوننا إليه فسبق أعرابي أصحابه ليملأ الحوض ويجعل حوله حجارة ويجعل النطع عليه حتى يجيء أصحابه قال : فأتى رجل من الأنصار الأعرابي فأرخى زمام ناقته لتشرب فأبى أن يدعه فانتزع حجرا فغاض الماء فرفع الأعرابي خشبته فضرب بها رأس الأنصاري فشجه فأتى عبد ا بن أبي رأس المنافقين فأخبره وكان من أصحابه فغضب عبد ا بن أبي ثم قال : لا تنفقوا على من عند رسول ا حتى ينفضوا من حوله يعني الأعراب وكانوا يحضرون رسول ا A عند الطعام فقال عبد ا لأصحابه : إذا انفضوا من عند محمد فائتوا محمدا بالطعام فليأكل هو ومن معه ثم قال لأصحابه : لئن رجعتم إلى المدينة فليخرج الأعز منها الأذل .

قال زيد وأنا ردف عمي قال فسمعت عبد ا بن أبي يقول ما قال فأخبرت عمي فانطلق فأخبر رسول ا A فأرسل إليه رسول ا A فحلف وجحد قال فصدقه رسول ا A وكذبني قال فجاء إلي عمي فقال ما أردت إلا أن مقتك رسول ا A وكذبك والمسلمون قال فوقع علي من الغم ما لم يقع على أحد قط قال فبينما أنا أسير مع رسول ا A في سفر وقد خفقت برأسي من الهم إذ أتاني رسول ا A فعرك أذني وضحك في وجهي فما كان يسرني أن لي بها الخلد في الدنيا ثم إن أبا بكر لحقني وقال : ما قال لك رسول ا A ؟ قلت : ما قال شيئا إلا أنه عرك أذني وضحك في وجهي فقال : أبشر ثم لحقني عمر فقلت له مثل قولي لأبي بكر فلما أن أصبحنا قرأ رسول ا A سورة المنافقين انفرد بإخراجه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح وهكذا رواه الحافظ البيهقي عن الحاكم عن أبي العباس محمد بن أحمد المحبوبي عن سعيد بن مسعود عن عبيد ا بن موسى به وزاد بعد قوله سورة المنافقين { إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك

لرسول ا } حتى بلغ { هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول ا حتى ينفضوا } حتى بلغ { ليخرجن الأعز منها الأذل } .

وقد روى عبد ا بن لهيعة عن أبي الأسود عروة بن الزبير في المغازي وكذا ذكر موسى بن عقبة في مغازيه أيضا هذه القصة بهذا السياق ولكن جعلا الذي بلغ رسول ا A كلام عبد ا بن أبي بن سلول إنما هو أوس بن أرقم من بني الحارث بن الخزرج فلعله مبلغ آخر أو تصحيف من جهة السمع وا أعلم وقد قال ابن أبي حاتم C : حدثنا محمد بن عزيز الأيلي حدثني سلامة حدثني عقيل أخبرني محمد بن مسلم أن عروة بن الزبير وعمرو بن ثابت الأنصاري أخبراه أن رسول ا A غزا غزوة المريسيع وهي التي هدم رسول ا A فيها مناة الطاغية التي كانت بين قفا المشلل وبين البحر فبعث رسول ا A خالد بن الوليد فكسر مناة فاقتتل رجلان في غزوة رسول ا A تلك أحدهما من المهاجرين والاخر من بهز وهم حلفاء الأنصار فاستعلى الرجل الذي من المهاجرين على البهزي فقال البهزي : يا معشر الأنصار فنصره رجال من الأنصار وقال المهاجري : يا معشر المهاجرين فنصره رجال من المهاجرين حتى كان بين أولئك الرجال من المهاجرين والرجال من الأنصار شيء من القتال ثم حجز بينهم فانكفأ كل منافق أو رجل في قلبه مرض إلى عبد ا بن أبي بن سلول فقال : قد كنت ترجى وتدفع فأصبحت لا تضر ولا تنفع قد تناصرت علينا الجلابيب وكانوا يدعون كل حديث الهجرة الجلابيب فقال عبد ا بن أبي عدو ا : وا لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

قال مالك بن الدخشن وكان من المنافقين : ألم أقل لكم لا تنفقوا على من عند رسول ا حتى ينفضوا فسمع بذلك عمر بن الخطاب فأقبل يمشي حتى أتى رسول ا A فقال : يا رسول ا ائذن لي في هذا الرجل الذي قد أفتن الناس أضرب عنقه يريد عمر عبد ا بن أبي فقال رسول ا A لعمر : [أو قاتله أنت إن أمرتك بقتله ؟] قال عمر : نعم وا لئن أمرتني بقتله لأضربن عنقه فقال رسول ا A : [اجلس] فأقبل أسيد بن حضير وهو أحد الأنصار ثم أحد بني عبد الأشهل حتى أتى رسول ا A فقال : يا رسول ا ائذن لي في هذا الرجل الذي قد أفتن الناس أضرب عنقه فقال رسول ا A : [أو قاتله أنت إن أمرتك بقتله ؟] قال : نعم وا لئن أمرتني بقتله لأضربن بالسيف تحت قرط أذنيه فقال رسول ا A : [اجلس] ثم قال رسول ا A : [آذنوا بالرحيل] فهجر بالناس فسار يومه وليلته والغد حتى متع النهار ثم نزل ثم هجر بالناس مثلها حتى صبح بالمدينة في ثلاث سارها من قفا المشلل .

فلما قدم رسول ا A المدينة أرسل إلى عمر فدعاه فقال له رسول ا A : [أي عمر أكنت قاتله لو أمرتك بقتله ؟] قال عمر : نعم فقال رسول ا A : [وا لو قتلته يومئذ لأرغمت أنوف رجال لو أمرتهم اليوم بقتله امتثلوه فيتحدث الناس أني قد وقعت على أصحابي فأقتلهم صبرا] وأنزل ا D { هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول ا حتى ينفضوا و خزائن

السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون * يقولون لئن رجعنا إلى المدينة } الاية وهذا سياق غريب وفيه أشياء نفيسة لا توجد إلا فيه وقال محمد بن إسحاق بن يسار : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد ا بن عبد ا بن أبي لما بلغه ما كان من أمر أبيه أتى رسول ا فقال : يا رسول ا إنه بلغني أنك تريد قتل عبد ا بن أبي فيما بلغك عنه فإن كنت فاعلا فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه فوا لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد ا بن أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار فقال رسول ا A : [بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا] .

وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد ا بن عبد ا هذا على باب المدينة واستل سيفه فجعل الناس يمرون عليه فلما جاء أبوه عبد ا بن أبي قال له ابنه : وراءك ! فقال : مالك ويلك ؟ فقال : وا لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول ا A فإنه العزيز وأنت الذليل فلما جاء رسول ا A وكان إنما يسير ساقة فشكا إليه عبد ا بن أبي ابنه فقال ابنه عبد ا : وا يا رسول ا لا يدخلها حتى تأذن له فأذن له رسول ا A فقال : أما إذا أذن لك رسول ا A فجز الان وقال أبو بكر عبد ا بن الزبير الحميدي في مسنده : حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا أبو هارون المدني قال : قال عبد ا بن عبد ا بن أبي بن سلول لأبيه : وا لا تدخل المدينة أبدا حتى تقول : رسول ا A الأعز وأنا الأذل قال وجاء إلى النبي A فقال يا رسول ا إنه بلغني أنك تريد أن تقتل أبي فو الذي بعثك بالحق ما تأملت وجهه قط هيبة له ولئن شئت أن آتيك برأسه لأتيتك فإني أكره أن أرى قاتل أبي